المدخل

لقد خصّ العرب من البلاغة والحكمة بما لم يخصّ به غيرهم من الأمم وأتوا من دراية اللسان ما لم يؤت إنسان، وكانوا قبل الرسالة السماوية يمتازون بالميل إلى الكلِمِ الطيّب، فأرهفوا كلمات عربيتهم وأسلوب خطابهم، مع ملاحظة جرس الكلمات، وموسيقى العبارات وكذا انسجام الحروف، ومؤاخاة المعاني للألفاظ .

وكان السبب كلّه هو سيادة الأمية فيهم فكان النطق يدلّ على المعنى ليقوم الأول مقام خُطوط الكاتبين، فأبدعوا في ذلك، ولعل ما ميّزهم هو القدرة على حفظ الأشياء والتّمييز بينها، فلم يعد لهم حاجة للكتابة، وبالرّغم من عدم أهمية الكتابة لديهم، وسيادة الشفوية، إلا أنّ بلاغتهم كانت بارعة، وألفاظهم ناصعة، وكلماتهم جامعة، فقد بلغوا في جاهليتهم مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان.

وإذا تساءلنا عن معنى البلاغة هنا يمكن أن نقول أنّها علم من علوم اللّغة العربية وهي روح الأدب، والبلاغة في اللّغة: الوصول والانتهاء، أما في لسان العرب:" يقال بلغ الشيء يبلغ بلوغًا: وصل وانتهى. والإبلاغ: الإيصال، بلغت المكان بلوغًا، وصلت إليه..."[1]

وقد أشار **ابن منظور** أيضا إلى المعنى الاصطلاحي فقال:" البلاغة، الفصاحة، والبَلْغُ والبِلْغُ: البليغ من الرجال. ورجل بَلِيغٌ: حسن الكلام فصيحه، يَبْلُغُ بعبارة لسانه كنْه ما في قلبه، والجَمْعُ، بُلَغَاءُ. وقد بَلُغَ بلاغة: أي صار بَلِيغًا."[2]

وعليه فإنّ هذا هو المعنى العام لكلمة البلاغة، فهي أوّلا الانتهاء والوصول وهي ثانيًا الفصاحة وحسن القول، وقد ظلّت البلاغة تحمل هذا المعنى إلى أن تغيّر معناها ليصبح كما يقول **السكاكي**:

"هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها، وإيراد التشبيه والمجاز على وجهها."[3]

---

[1]- أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، دار الجاحظ، بغداد، 1982م ، ص 5.

[2]- المرجع نفسه، ص 5.

[3]- المرجع نفسه، ص 6.

وقد فرّق الخطيب **القزويني** بين بلاغة الكلام، وبلاغة المتكلّم فقال: "وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. هذا عن الأولى أما الثانية فقال عنها: وأما بلاغة المتكلمّ فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ."[1]

وقد قسّم بدوره البلاغة إلى ثلاثة أقسام وهي:

– **"علم المعاني**: وهو علم يعرف به أحوال اللّفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.

– **علم البيـــان**: وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

– **علم البديـع**: وهو ما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته."[2]

وإذا عدنا إلى بلاغة العرب نجد كل "هذه المصطلحات البلاغية غير معروفة في عصر ما قبل الإسلام، غير أنّ الفنون البلاغية التي وردت في الشّعر تشهد أنّ العرب كانوا على دراية بمختلف الأساليب والصور المتعددة التي كانت تزيد كلامهم جمالاً.

إذ نجد من الاستعارة على سبيل التمثيل في قول **امرئ القيس**:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَـــهُ ** عَلَـيَّ بِأَنْـوَاعِ الْهُمُـومِ لِيَـبْتَـــلِي.**

فَقُلْـتُ لَهُ لمَـا تَمَـطَّى بِصُلْبِـــهِ ** وَأَرْدَفَ إِعْـجَـازًا وَنَـاءَ بِـكَلْكَــلَ." [3]**

وعليه فإنّ صناعة الكلام، وفصاحة القول، والاقتدار على التفنّن في أضرب البلاغة والبيان كل ذلك كان هو سلعة العرب في جاهليتهم، وكانت الإجادة في فن القول ناتجة عن سليقة وطبع فطريين، فقد جبل العربي في صحرائه على حب الكلمة وتوخّي عذوبة الألفاظ، حتى عمدوا إلى مختارات شعرهم العربي الرائق فعلّقوها على ظهر الكعبة المشرفة، وقد نزل ذاك الشّعر الخصب المتين

[1]– أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص 7.

[2]– المرجع نفسه، ص 8.

[3]– المرجع نفسه، ص 12.

من النّفس البشرية منزلاً رفيعًا، فكان في الجاهلية كما يقول ابن سلّام:"ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون...قال عمر بن الخطاب τ: كان الشّعر علم قول لم يكن لهم علم أصحّ منه..." [1]

وقد كان له من الرّفعة آنذاك ما يجد فيه قائلوه، وسامعوه من تعبير عن العواطف وتمثيل للمثل والسّجايا، وكان هذا سببًا مقنعًا لإقبالهم عليه كل الإقبال، فحفظوه، وتدارسوه ورووه.

ولعل من أكبر الدلائل على فصاحة العرب وعلوّ شأنهم في البلاغة والبيان هو نزول القرآن الكريم بلغتهم العربية، يقول تعالى:" **إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ۝٢ "(يوسف : 02).

ليأتي القرآن الكريم مصداقًا للآية الكريمة بلسان عربي خطابًا للعقل والقلب، مخالفًا لما عرفه العرب من أساليب المنظوم والمنثور، فكان وجوده سببًا لميلاد أمّة دفنتها رمال الصحراء، وقد جاءت معجزة **الرّسول**ρ بيانية، بلاغية من جنس ما أبدع به القوم حتّى تكون عليهم حجّة، إذ أنّ البلاغة العربية لا يعرف مقامها إلا من على أعلى مراتب البلاغة والفصاحة.

وفي هذا السياق يجدر بنا أن نقف على معنى القرآن الكريم، ومعنى المعجزة.

– أما القرآن الكريم فهو في اللّغة مصدر مرادف للقراءة، ثم نقل من المعنى اللّغوي إلى المعنى الاصطلاحي الدّال على أنّه كلام اللّه المنزّل على قلب **محمّد** ρ بواسطة الوحي، منجمًا في شكل آيات وسور خلال فترة الرّسالة – ثلاث وعشرون سنة – مبدوءًا بفاتحة الكتاب ومختومًا بسورة النّاس، منقولاً بالتّواتر، برهانًا معجزًا على صدق رسالة الإسلام."[2]

أمّا عن معنى المعجزة فنقول أنها في اللغة "مأخوذة من العجز، وهو ما يقابل القدرة، وقد عرفها العلماء على أنها ذلك الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدّي وسالم من المعارضة، يظهره **اللّه** تعالى على يد رسله، ويفوق طاقة البشر."[3]

---

[1] – يحي الجبّوري، الشّعر الجاهلي خصائصه، وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 5، 1986م – 1407هـ، ص 130 (بتصرف).

[2] – عبد الصبور شاهين، تاريخ القرآن، نهضة مصر، مصر، ط3، 2007م، ص 23.

[3] – حسن ضياء الدين عتر، المعجزة الخالدة، دار البشائر، بيروت، ط3، 1994م، ص19.

ثمّ كان القرآن معجزة في حدّ ذاته، مناسبًا لحال القوم الذين نزل فيهم، وبلسانهم ليكون أبلغ في إيقاع الحجّة عليهم، وجاء على نمط يعجز قليله، وكثيره معا، فكان أشبه بالنور في جملة نسقه، لأنّه صفى اللّغة من أكدارها وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها، فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السّحاب."[1]

وإن كنّا قد وقفنا على معنى المعجزة فما معنى الإعجاز القرآني إذن ؟.

وعليه فإنّ القرآن قد نزل على وجه يعجز البشر عن الإتيان بمثله.ثمّ إنّ التّحدي بالمعجزة القرآنية لم يخصّ قومًا دون قوم فكان الإعجاز قائمًا في كل العصور وفي هذا يقول جلّ شأنه:"**قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴿٨٨﴾ "(الإسراء : 88).

ولهذا كان ولا يزال القرآن معجزة عقلية تشاهدها الأبصار باقية مستمرة الإعجاز أبد الدّهر، ونجد معنى ذلك في قوله ρ :" ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه **اللّه** إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة "(صحيح البخاري).

انطلاقًا ممّا تقدّم فإنّ أقرب مفهوم للإعجاز القرآني، هو ما نجده لدى القاضي **عبد الجبار** الذي يقول:"ومعنى قولنا في القرآن أنّه معجز: أن يتعذّر على المقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي يخصّه."[2]

والمعنى من ذلك أنّ البشر فصحاء وعلماء يتعذر عليهم الإتيان بمثله في أسلوبه البياني أو أخباره الغيبية، أو أي وجه من وجوه إعجازه الأخرى، وذلك لسموّه على طاقاتهم، وقصورهم عنه قصورًا أبديًا.

[1]- مصطفى الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، المكتبة التوقيفية، ص 74 (بتصرف).

[2]- حسن ضياء الدّين عتر، مرجع سابق، ص 106- 107.

وقد اعتنى العلماء والأدباء والمتكلّمون بقضية الإعجاز، ولعل أول من وضع فيه مؤلّفًا خاصًا هو **الجاحظ** وسمّاه (نظم القرآن) ثمّ تبعه **محمّد بن يزيد الواسطي** فصنّف كتابه (إعجاز القرآن)، ثم أتى بعده **أبو عيسى الرّماني فالخطّابي، فالباقلّاني** في كتابه المشهور (إعجاز القرآن)، ليأتي **الجرجاني** بعد هؤلاء ويصنّف في الإعجاز كتابه (دلائل الإعجاز)، وللإشارة فإنّ هذه الدراسات وغيرها كانت مرجعًا أساسيًا لكل المحاولات التي تلتها ضمن موضوع الإعجاز.

فكيف تناول هؤلاء العلماء مسألة الإعجاز القرآني؟ مع العلم أنّهم قد تحرّوا الكشف عن وجوه الإعجاز في كتاب **اللّه** تعالى التي نراها في تعدّد وتجدّد مستمر عبر العصور فتناولوها بالبحث والدراسة إيمانًا منهم أنّ دراسة القرآن والنّظر في أسراره وإبراز وجوه إعجازه لا يكون إلا دفاعًا عن القرآن، وردًّا لسهام الطاعنين في أصل المعجزة.

ولعل من أبرز الوجوه الإعجازية المعروفة هي: الإعجـــاز العلمي، الإعجــاز التأثيري، الإعجاز التشريعي، الإعجــاز البلاغي.

حيث يعد هذا الأخير من أهم الوجوه الإعجازية في القرآن لأنّه الأصل الذي وقع به التحدّي، والسمة المصاحبة له في كل ألفاظه وتراكيبه، وآياته، وسوره، ومقاطعه، وفواصله، وفي هذا يقول **الخطّابي**: "إنّ في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه النّاس وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس ..."[1]

فإن كان ما يقصده **الخطّابي** في قوله، هو الإعجاز البلاغي، فما هي أهم جوانبه وتجلياته؟. وكيف تناوله علماء البلاغة والإعجاز في دراستهم؟.

وللإشارة فإنّ مفهوم الإعجاز يتأتى من التأثير العميق في النّفس فطبيعته تنسجم مع معنى التأثير في البلاغة فقد أعجزهم القرآن بما اتّصف به من البلاغة فائقًا سائر البلاغات متميزًا ومنفردًا بأسلوبه الخاص، مغايرًا لجميع أساليب العرب في الكتابة، والخطابة، والتأليف.

[1]- محمد كريم الكوّاز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط 1، 1426هـ، ص 27.

ثمّ إنّ أسلوب القرآن هو مادة الإعجاز في نظر العديد من العلماء الذين أقرّوا بأنّ أسلوب القرآن الفريد قد أعجز البشر بأن يحاكوا نظمه وتأليفه، وهو طابع لغتهم، وظاهرة حية لأفكارهم وعقولهم.

وعن الأسلوب القرآني نتحدث في بحثنا هذا، فقد اخترناه ليكون موضوعاً لهذه الدراسة، التي نحاول من خلالها الكشف عن بلاغته الإعجازية، وعليه فما هي أهم الخصائص البلاغية والفنية للتركيب الأسلوبي المعجز؟. وأين تكمن تجليات إعجاز الأسلوب القرآني الفريد؟. وسنحاول قدر الإمكان الإجابة عن هذه الإشكالات وغيرها في محتوى رسالتنا هذه إن أذن لنا المولى عزَّ وجلَّ.

والجدير بالذّكر هنا أنّ العديد من العلماء والمفكّرين قد اشتغلوا بدراسة الأسلوب القرآني وبلاغته الإعجازية فوقفوا على تجليات الإعجاز في البناء، والنّظم، والتأليف ضمن تنقّلاته الرائعة، وسياقاته المعجزة، وبناءًا عليه فإنّ القارئ للقرآن يجد نفسه متحيرًا في هذا النّظم البديع الذي أعجز البلغاء والفصحاء، وأدهش علماء الكلام واللّغة والنحو والبيان.

ويعدّ الإمام **أبوبكر الباقلّاني**، أحد هؤلاء العلماء، فهو من أعلام المدرسة الأشعرية، ومن المتكلّمين الذين اعتنوا بقضية الإعجاز في القرآن الكريم.

هذا وقد فضّل **الباقلّاني** البحث في الإعجاز على غيره من العلوم ليقول:" وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة، في معاني القرآن وتكلم في فوائده من أهل الصنعة العربية، وأهل صناعة الكلام أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته...فالحاجة إلى هذا أمس والاشتغال به أوجب."[1]

والمتأمّل لما تركه الإمام من أعمال ومصنّفات في مجال دراسة القرآن يجده قد أسهم بجهود طيّبة تلفت النظر إلى جوانب الإعجاز، خاصة في كتابه الذي أفرده للحديث عن هذا الموضوع، والذي جاء بعنوان" إعجاز القرآن."

[1]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 20.

هذا وقد نتساءل في هذا الصدد عن مدى إسهام جهود **الباقلّاني** في الثقافة النّقدية والبلاغية، وكيف كان تعامله مع الأسلوب القرآني كوجه من وجوه الإعجاز؟....وأين تتجلى وجوه الإعجاز لديه ؟.

ومن هذا المنطلق سيكون حديثنا منصبًا على هذا العلم بصفته واحدًا من كبار أعلام البلاغة والإعجاز حيث سنتّخذه أنموذجًا لدراستنا موضّحين بذلك منهجه في الدراسة البلاغية والنّقدية، وكذا منهجه في دراسة الإعجاز القرآني، والإعجاز البلاغي على وجه الخصوص، والجدير بالذّكر هنا أنّ ظاهرة الإعجاز البلاغي في جوهرها دراسة نقدية بامتياز" فهي تعتمد على بحث الأساليب، وتعمّق أسرار البلاغة، والموازنة بين ألوان الكلام الرفيع، إلا أنّ النّقد حين يقترب من الإعجاز البلاغي يجب عليه لزامًا التخلي عن حدّه بالتمييز بين الجودة والرداءة، ليبقي على تحليل مواطن الجودة في النص والتأثير في النّفس، فيدخل في المفهوم العام للإعجاز البلاغي."[1]

وعليه فإنّ إعجاز القرآن البلاغي لم يكن مقصودًا لذاته، وإنّما لشدّ بصر الإنسان وبصيرته، ليعي سمة البيان في القرآن الكريم.

يقول تعالى:"**هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴿١٣٨﴾" (آل عمران: 138)

☙ فضل القرآن الكريـم :

لا ريب أنّ القرآن الكريم كان له أثره الأدبي واللّغوي فضلا عن أثره الدّيني والروحي، والقرآن معجزة التاريخ العربي خاصة، وأصل النهضة الإسلامية، أما في مجال الأدب فقد تأثّرت بالقرآن جميع فنون الأدب العربي شكلاً وموضوعا مع ما ظهر في هذا الأخير من قيم جديدة روحية وعقلية، واجتماعية، وإنسانية مستقّاة من القرآن بحرص وتقديس. فأين يكمن فضل وأثر القرآن الكريم إذن؟.

لقد تبوّأ القرآن في نفوس المؤمنين أعلى مقام، بل انفرد بالعناية العظمى، حتى صار أول كتاب

[1]- محمد الكوّاز، مرجع سابق، ص 32.

مدون في تاريخ العربية، عكف العلماء على تدارسه، لتسير حركات التدوين والتأليف في أنواره، في تأثّر لبلاغته وبيانه للمعجزين فطال شعاعه حياة العرب الفكرية والأدبية والاجتماعية، والدليل على هذا أنّ كل العلوم قد نبعت من القرآن المجيد لتتّسع وتتجانس بعد ذلك. فاعتنى النحات بالمعرّب منه والمبني، وبضروب الأفعال ورسوم خط الكلمات ومنهم من أعرب مشكله، وكلماته فظهر علم النحو والصرف وباقي علوم العربية."[1]

واعتنى المفسّرون بألفاظه، واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية، وسمّوا هذا العلم لأصول الدّين. وهناك من تأمّل معاني خطابه، واستنبط منه أحكام ووقائع الأمم الخالية، وما فيه من حكم وأمثال ومواعظ."[2]

فلولا القرآن وأسراره البلاغية والبيانية ما اجتمع العرب على لغته ولقد كان أسلوبه البياني الذي جمع إليه العرب هو ما دفع العلماء إلى تتبّع اللّغات وتدوينها، ورواية شواهدها، ما يتجلى تأثير القرآن في اللّغة في إقامة أدائها على الوجه الذي نطقوا به، وتيسير ذلك لأهلها في كل عصر، فاستنقذ القرآن المجيد العرب من شتات اللهجات القبلية، فقارب بينها وألّف بين ألسنتها بالنّطق بأفصح لهجات العربية، مع توحيد اللّغة وتهذيبها من الحوشي والغريب فأحالها إلى الصفاء.

فنظر الكتّاب والشعراء إلى جزالته لفظه وبديع نظمه وحسن سياقه ليستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

وهكذا انتشلت هذه العلوم بذورها في كنف القرآن الكريم، وكان الهدف الأسمى من هذا كله هو خدمة القرآن العظيم، وسيبقى هو الكتاب الخالد، والنّبع الفياض، والمعين الذي لا ينصب من الأسرار والدلائل المعجزة، ويظل أمام الدارسين الكتاب المفتوح الذي تنهل من فيضه كل الأجيال مدى الدهر.

---

[1]- مصطفى الرّافعي، إعجاز القرآن، مرجع سابق، ص117.

[2]- المرجع نفسه، ص117- 118 (بتصرف).